المَشروعُ المَهدَويُّ والعدالة البيئيَّة:
نَحوَ رؤيةٍ كونيَّةٍ للانسِجامِ بينَ الإنسانِ والكون

السيد هشام حسن مرتضى[1]

ملخّص

يتناول هذا البحث الأزمة البيئيَّة بوصفها أزمة روحيَّة ورؤيويَّة قبل أنْ تكون تقنيَّة أو اقتصاديَّة؛ إذ فَقَدَ الإنسان الحديث علاقته القدسيَّة بالطبيعة، فحوّلها من موطن توازن وكرم إلى مورد للاستغلال. ينطلق البحث من تشخيص الاضطرابات البيئيَّة الناتجة عن الأنشطة البشريَّة، كالتلوث، والاحتباس الحراري، وفقدان التنوُّع الحيوي، ليرى أنَّها نتاج نموذج تنموي غير مستدام، يقوم على الجشع والاستهلاك المفرط. ويقارن بين واقع الظلم البيئي العالمي—حيث تتحمَّل الدول الفقيرة أعباء التلوّث الذي تنتجه الدول الغنيَّة—وبين الرؤية القرآنيَّة والروحيَّة التي يقدّمها المشروع المَهدَوي، باعتباره نموذجًا إلهيًّا لإعادة الانسجام بين الإنسان والكون.

فدولة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ليست مشروعًا سياسيًّا فحسب، بل إصلاحًا بيئيًّا كونيًّا شاملًا، تُستعاد فيه توازنات الأرض، وتتحقَّق العدالة البيئيَّة والاجتماعيَّة معًا؛ إذ تصبح الطبيعة شريكًا في الخير، لا موضوعًا للاستغلال. ويدعو البحث إلى تجديد العلاقة الروحيَّة مع الكون، واستلهام الرؤية المَهدَوية لبناء وعي بيئي إنساني، يُصلح الأرض من خلال إصلاح الإنسان نفسه.

الكلمات المفتاحية: العدالة البيئيَّة، المشروع المَهدَوي، الإنسان والكون، الإصلاح الكوني، الخلافة الإلهيَّة، الأزمة البيئيَّة، الانسجام الوجودي.

١ - أستاذ الدراسات العليا في الحوزة العلميَّة في لبنان، وباحث في المجالات الدينيَّة والتاريخيَّة والفلسفيَّة.

Mahdist Project, Environmental Justice
toward Cosmic Vision of Harmony between Humanity, Universe

alsayed Hisham Hasan Murtada[1]

Abstract:

This research approaches the environmental crisis as a spiritual and worldview crisis before it is a technical or economic one. The modern humanity has lost its sacred relationship with nature, transforming it from a realm of balance and generosity into a resource for exploitation. The research begins by diagnosing environmental disturbances caused by human activities, such as pollution, global warming, and the loss of biodiversity, and argues that these are the result of an unsustainable development model based on greed and excessive consumption. It compares the reality of global environmental injustice, where poorer countries bear the burden of pollution produced by wealthier nations, with the Qur'anic and spiritual vision offered by the Mahdist project, which is presented as a divine model for restoring harmony between humanity and the universe.

The state of Imam Mahdi (may Allah hasten his reappearance) is not merely a political project, but a comprehensive cosmic environmental reform through which the balance of the earth is restored and environmental and social justice are achieved together. In this vision, nature becomes a partner in goodness rather than an object of exploitation. The research calls for renewing the spiritual relationship with the universe and drawing inspiration from the Mahdist vision to build a humane environmental consciousness that reforms the earth through the reform of the human being himself.

Keywords:

Environmental Justice, Mahdist Project, Humanity and the Universe, Cosmic Reform, Divine Caliphate, Environmental Crisis, Existential Harmony.

1 - Professor of postgraduate studies at the Lebanese Hawza (Islamic seminary), researcher in religious, historical, and philosophical fields.

مقدِّمة

إنَّ الأزمة البيئيَّة التي يعيشها عالمنا اليوم ليست مجرَّد أزمة تقنيَّة أو اقتصاديَّة يمكن معالجتها بترقيعات سطحيَّة. إنَّها في جوهرها أزمة رؤية، وأزمة علاقة، وأزمة روح.

لقد كتبت هذه الصفحات وفي خلدي سؤال مُلحّ: كيف وصلنا إلى هذه الحال؟ وكيف أصبحنا نعامل بيتنا الكبير - هذا الكوكب الذي يستضيفنا - كما لو كان فندقًا نستغلّه ثمَّ نرحل؟ وكيف استطعنا أنْ ننسى أنَّنا جزء من نسيج هذا الكون، لا أسياد عليه؟

لطالما نَظَرتْ الحضارات القديمة إلى الطبيعة على أنَّها أمٌّ حنون، أو معلِّم حكيم، أو هبة مقدَّسة. أمَّا نحن في عصرنا الحديث، فقد حوَّلناها إلى مخزن للموارد نستغلّه، أو سلَّة نفايات نلقي فيها فضلاتنا. لقد قطعنا تلك الصلة الروحيَّة التي كانت تربط أسلافنا بالأرض، والسماء، والماء، والهواء.

لذلك سنستهدي في هذه الرحلة، وعبر هذه السطور بتراثنا الحضاري الغني، وبما يقدِّمه المشروع المَهدَوي من رؤية شاملة للعلاقة بين الإنسان والكون. لا لأنَّنا نبحث عن حلول في الماضي، بل لأنَّنا نعتقد أنَّ في تراثنا الحكيم ما يمكن أنْ يضيء لنا طريق المستقبل، بل لأنَّ المشروع المَهدَوي هو المستقبل الذي تنتظره البشريَّة.

وكلامنا هذا ليس مجرَّد بحث علمي، بل هو دعوة إلى حوار.. حوار مع الذات أوَّلًا، ثمَّ مع الآخرين. وهو محاولة لإعادة وصل ما انقطع، وجبر ما انكسر في علاقتنا مع العالم من حولنا.

إنَّ دولة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف أو دولة آل محمد عليهم السلام ليست مجرَّد دولة دينيَّة بالمعنى التقليدي،

بل هي نموذج إلهي فريد لإصلاح الأرض والإنسان معًا؛ إذ لم تعرف البشريَّة في تاريخها دولة حظيت بالدعم الإلهي المطلق والدائم، كما تحظى به هذه الدولة المباركة. فالقوى الكونيَّة والطبيعيَّة والروحيَّة جميعها تكون في خدمتها، كما ورد عن الأئمَّة الأطهار أنَّ الملائكة ستكون فرقة دائمة من جيشها، وأنَّ القوى الطبيعيَّة مُسخَّرة للإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

ففي ظلّ هذه الدولة، لا يكون الإصلاح مقتصرًا على البنية السياسيَّة أو الاجتماعيَّة، بل يمتدُّ ليشمل الكون بأسره؛ إذ تتحوَّل الأرض والسماء إلى منظومة متناسقة تعمل بانسجام تامّ لتحقيق العدالة الشاملة. وقد أكّد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمَّة الكرام عليهم السلام أنَّ الأرض في عهد الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف ستخرج كلَّ كنوزها ونفائسها ونباتها، وأنَّ السماء ستنزل كلّ قطرها وبركاتها. فذلك عرض عملي لبركات الحكم الإلهي الأمثل، وتصحيح شامل للمفاهيم الخاطئة التي ربطت الحكم الديني بالتسلّط أو الحرمان.

هذا الانفتاح الكوني الذي تشهده دولة الإمام هو في جوهره إصلاح بيئي شامل؛ إذ تستعيد الطبيعة توازنها المفقود، وتتحقَّق العدالة في توزيع خيراتها، فلا فساد في الأرض ولا في البحر، ولا ظلمة تغطي وجه الطبيعة، بعد أنْ طهّرها المهدي عجل الله فرجه الشريف من رجس الظالمين الذين أفسدوا فيها. ويعبّر الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن هذا الانسجام الكوني بقوله: «إن المؤمن في زمن الإمام المهدي وهو في المشرق ليرى أخاه الذي في المغرب، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي في المشرق».[1]

وفي حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، ولا تدع السماء من قطرها شيئا إلا صبَّته، ولا الأرض من نباتها شيئًا إلا أخرجته، حتى تتمنَّى الأحياء الأموات».[2]

تشير هذه النصوص إلى اتّحاد الأرض والإنسان في منظومة واحدة؛ حيث تزول الحواجز

١ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٥٢، ص٣٩١، ح٢١٣.
٢ - علي بن طاووس: التشريف بالمنن في التعريف بالفتن المعروف بالملاحم والفتن، ص١٤٦، باب ١٤٦، ح١٧٥.

الماديَّة والمعرفيَّة، ويصبح الكون شفَّافًا في تعامله مع الإنسان، وكأنَّ الوجود كلَّه قد استعاد وظيفته الأصليَّة في خدمة الحقّ والخير.

ومن ملامح هذا الإصلاح البيئيّ الشامل أنَّ السماء تعطي كلَّ قطرها ومائها، وأنَّ الأرض تخرج كلَّ كنوزها ونفائسها ونباتها، فلا يبقى في الطبيعة ما هو معطَّل أو مكنون عن الإنسان. كما رُوي عن الإمام الرضا عليه السلام:

«إذا قام قائمنا، يأمر الله الملائكة بالسلام على المؤمنين، والجلوس معهم في مجالسهم... ومن المؤمنين من يسير في السحاب، ومنهم من يسير مع الملائكة مشيًا، ومنهم من يتحاكم الملائكة إليه».[1] وفي هذا تجسيد لتحوُّل العلاقة بين الإنسان والطبيعة إلى علاقة انسجام وتكامل، لا علاقة صراع أو استغلال، فالمؤمن يصبح في هذه المرحلة مكرَّمًا حتى على الملائكة، والملائكة نفسها تصبح جزءًا من عمليَّة إعمار الأرض وإصلاحها.

كما يتحقَّق في عهد الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف تـوازن بيئي لم تعرفه البشريَّة من قبل، فلا حيوان يفترس آخر، ولا سموم، ولا فساد في البر أو البحر. وقد ورد عن الإمام الحسن عليه السلام واصفًا زمان المهدي عجل الله فرجه الشريف:

«يدين لـه عرض البلاد وطولها، ولا يبقى كافر إلا آمن به، ولا طالح إلا صلح، وتصطلح في ملكه السباع»،[2] ورُوي أيضًا أنَّ الذئب سيرعى مع الغنم كأنَّه كلبها الحارس.

إنَّها حالة من الانسجام المطلق بين بني البشر وبين الكائنات جميعًا؛ حيث يصبح الكون كلّه حديقة عدل وسلام، ويعمّ الوفاق بين الإنسان والطبيعة. فكلّ الكائنات تستجيب لمنطق العدل الإلهي؛ لأنَّ الدعوة في عهد الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف سماويَّة لا أرضيَّة.

وهكذا تتحوَّل الأرض إلى نموذج للسكينة والخصب والجمال، وتتحقَّق فيها العدالة البيئيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة معًا، فلا محتاج ولا مظلوم ولا مُفسِد. فالذهب والفضَّة لا يعدّان عدًّا، بل «يُهالان هيلًا»، ولا يجد العاملون على الزكاة محتاجًا يقبلها؛ لأنَّ الجميع في رخاء وكفاية تامَّة، كما تواترت الأحاديث النبويَّة في ذلك.

---

١ - محمد بن جرير الطبري: دلائل الإمامة، ص٤٥٥، ح٤٣٤/٣٨.

٢ - أحمد بن علي الطبرسي: الاحتجاج، ج٢، ص١٢.

إنَّ دولة الإمام المهدي عجل الله فرجه ليست فقط دولة عدلٍ بين البشر، بل هي دولة عدلٍ كوني، تُعيد التوازن إلى الطبيعة بعد أنْ أرهقها الإنسان بظلمه، وتعيد للأرض خصوبتها، وللسماء نقاءها، وللكائنات سكينتها. إنَّها الدولة التي يتحقق فيها وعد الله بالأرض الطيبة، وتُرفع فيها مظاهر التلوث والظلم والفساد، وتستعيد الخليقة بكاملها صفاءها الأوَّل.

فالإصلاح في عهد الإمام المهدي عجل الله فرجه هو إصلاح بيئي كوني شامل، يطهِّر الأرض من آثار الظلم، ويقيم نظامًا منسجمًا بين الإنسان والوجود، وبين المادَّة والروح، وبين الأرض والسماء، ليكون كلُّ شيء شاهدًا على تحقق إرادة الله في قوله تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥].

فالأرض نفسها تُبعث من جديد، خضراء نقيَّة، شاهدة على عدل الله، وكرم آل محمد عليهم السلام.

هذه معالم الدولة المَهدَوية، لكن، ما هو الواقع اليوم؟ وما مدى انسجام السياسات والممارسات البيئيَّة على المستوى العام والخاصّ مع معالم الدولة المَهدَوية المنشودة؟ وكيف نعيد اكتشاف أنفسنا في مرايا العصر الحاضر؟

هذا السؤال الذي يخطر في البال لدى تأمُّل أحوال عالمنا، هو ما نحاول استقصاءه عبر فصول هذا المقال. إنَّه رحلة فكريَّة وشعوريَّة تبحث عن جذور الأزمة البيئيَّة التي يعيشها كوكبنا، لا في التقنيَّات والاقتصادات فحسب، بل في أغوار النفس البشريَّة ومساراتها الروحيَّة.

يبدأ هذا المقال من حيث ينتهي كثيرون - من تشخيص الواقع المرير الذي أوصلتنا إليه أنماط عيشنا. فنحاول أوَّلاً أنْ نكشف النقاب عن «الاضطرابات البيئيَّة» بوصفها أعراضًا لمرض أعمق في رؤيتنا للوجود. لكن التشخيص وحده لا يكفي، لذا ننطلق ثانيًا إلى رحاب «العدالة البيئيَّة» سعيًا نحو إنصاف للأرض وسكّانها.

لكنَّ العدالة المجرَّدة قد تبقى حبرًا على ورق ما لم تستند إلى مرتكزات روحيَّة راسخة، وهنا نتحوَّل ثالثًا لنوضِّح ملامح «المشروع المَهدَوي» بوصفه رؤية كونيَّة تضع الإنسان في مكانه الطبيعي، خليفةً وحارسًا، لا مستغلاًّ ومهيمنًا.

ولا يكتفي المقال بالرؤى، بل ينتقل إلى التطبيقات، فنقدّم رابعًا نماذج عمليَّة لـ «ترجمة القِيَم إلى ممارسات»، ثمَّ نغوص إلى الأعماق، لنصل إلى «الجذور الخُلقيَّة والروحانيَّة» التي تغذّي

تلك الرؤى وتقويها.

وأخيرًا، يختتم المقال رحلته بدعوة عمليَّة إلى «تعزيز العلاقة المستدامة» بالرؤية المَهدَوية، التي تجمع بين الأســاس العقدي والابتــكارات الحضاريَّة، وبين نــداء الضمير ومتطلِّبات العصر.

كما أنَّ هذه الفصول ليست فصولاً منفصلة، بل هي حلقات متَّصلة في سلسلة واحدة، تبدأ من الواقع المادِّي لتصل إلى الأعماق الروحيَّة، ثمَّ تعود إلى التطبيقات العمليَّة. إنَّها محاولة لنســج خيط ناظم بين القيم والممارسات، وبين الغايات والوسائل، وبين الإنسان والكون.

إنَّ هذا المقال لا يخاطب العقل فقط، بل يخاطب القلب والضمير معًا. وهو لا يقدم قوالب جاهزة بقدر ما يفتح أبوابًا للتأمل وإعادة النظر. فالأزمة البيئيَّة في نهاية المطاف ليست أزمة طبيعة، بل هي أزمة إنسان - إنسان نسي موقعه في الكون، وغفل عن رسالته في الوجود.

فلعلّنا نشعل نبراسًا يضيء الطريق لقلوب تتوق إلى الانسجام مع الكون، وعقول تبحث عن الحكمة في زمن الجشع المادِّي، وأيدي تبني ما تعلنه الألسن، ونفوس تدرك أنَّ إصلاح الأرض يبدأ من إصلاح القلب.

أوّلًا: الاضطرابات البيئيَّة: تداعيات الأنشطة البشريَّة على النظام الطبيعي للأرض

لطالمــا كانت الأرض نظامًا متوازنًا بدقَّة، تدور فيه عنــاصر الطبيعة في حلقة متناغمة تضمن اســتمرار الحياة. لكنَّ هذا التوازن الدقيق أصبح اليوم على حافَّة الهاوية؛ حيث تشكَّل الأنشطة البشريَّة مصدرًا رئيسًــا للاضطرابات البيئيَّة، التي تهدِّد استقرار الكوكب بأسره. لقد تجاوز تأثير الإنسان مرحلة كونه مجرَّد عامل طبيعي ليصبح القوَّة المهيمنة في تشكيل وجه الأرض، ما خلق أزمة بيئيَّة غير مسبوقة في تاريخها.

الاحتبــاس الحراري أبرز مظاهــر هذه الاضطرابات. فبفعل حرق الوقــود الأحفوري، وإزالة الغابات، ارتفعت تركيزات غازات الدفيئة في الغلاف الجوي إلى مســتويات قياسيَّة، ما أدَّى إلى ارتفاع درجات الحرارة العالميَّة، وذوبان الجليد القطبي، وارتفاع منسوب البحار، وتكرار الظواهر الجويَّة المتطرِّفة.

أمّا الأنشطة الصناعيَّة، ووسائل النقل، فتطلق كمِّيات هائلة من الملوِّثات في الهواء، ما يؤدِّي إلى تدهور جودة الهواء، وتشكيل خطر مباشر على صحَّة الإنسان والأنظمة البيئيَّة. كما يسهم تلوُّث الهواء في تكون الأمطار الحمضيَّة التي تدمِّر الغابات والمسطَّحات المائيَّة.

وقد أدَّى تدمير الموائل الطبيعيَّة من خلال إزالة الغابات، والتحضُّر، والزراعة المكثَّفة، مضافًا إلى الصيد الجائر والتلوّث، وإلى تسريع وتيرة الانقراض. ففقدان التنوّع البيولوجي يضعف مرونة الأنظمة البيئيَّة، ويقوِّض خدماتها الأساس، مثل تلقيح المحاصيل، وتنقية المياه.

كذلك أدَّى تسرّب الملوِّثات الكيميائيَّة من الصناعة والزراعة إلى الأنهار والمحيطات والطبقات الجوفيَّة، إلى أخطار على صحَّة الإنسان والحياة المائيَّة. كما أدّت الممارسات الزراعيَّة غير المستدامة إلى تدهور التربة وتصحُّرها، ما يفقد الأرض قدرتها الإنتاجيَّة.

١ - الجذور العميقة للأزمة: نموذج تنموي غير مستدام

لا يمكن فهم هذه الاضطرابات بمعزل عن النموذج الاقتصادي والاجتماعي السائد. فالنموّ الاقتصادي القائم على الاستهلاك المفرط للموارد، والاعتماد الشديد على الطاقة الأحفوريَّة، والثقافة الاستهلاكيَّة، تشكّل جميعها المحرِّك الأساس للتدهور البيئي. لقد تخطَّت البصمة البيئيَّة للإنسان قدرة الأرض على التّجدّد؛ حيث نستهلك موارد أكثر مما يمكن للكوكب أنْ ينتجه في عام واحد.

إنَّ هذه الاضطرابات لا تعمل بمعزل عن بعضها بعضًا، بل هي مترابطة ومعقَّدة. فظاهرة الاحتباس الحراري، على سبيل المثال، تؤدّي إلى تغيّر أنماط هطول الأمطار، ما يؤثِّر على توفّر المياه العذبة والإنتاجيَّة الزراعيَّة. كما أنَّ ارتفاع حرارة المحيطات، وزيادة حموضتها تدمّر الشُعَب المرجانيَّة، التي تمثِّل موطنًا لربع الكائنات البحريَّة. هذه التداعيات المتسلسلة تخلق حلقة مفرغة من التدهور، تهدّد الأمن الغذائي والمائي، وتزيد من حدَّة النزاعات، وتؤدِّي إلى نزوح جماعي للسكّان.

هذه الاضطرابات البيئيَّة الناتجة عن الأنشطة البشريَّة ليست قَدَرًا محتومًا، بل هي نتيجة خيارات جمعيَّة. لقد وصلنا إلى مفترق تاريخي يتطلَّب منَّا إعادة تعريف علاقتنا مع الطبيعة. إنَّ

المواجهة الفعَّالة لهذه الأزمة ليست مسؤوليَّة الحكومات والمؤسَّسات فقط، بل هي مسؤوليَّة مشتركة تقع على عاتق كلّ فرد منَّا. فمن خلال تبنّي رؤية جديدة تقدِّر الاستدامة، وتدرك أنَّ صحَّة الإنسان ورفاهيَّته مرتبطان ارتباطًا وثيقًا بصحَّة الكوكب، يمكننا بناء مستقبل لا نعيش فيه على الأرض فحسب، بل نتعايش معها في وئام وتوازن.

٢- قضيَّة البيئة: منظور عالمي للصراع من أجل التغيير والإصلاح

تمثَّل البيئيَّة واحدة من أهم القضايا العابرة للحدود في عصرنا؛ حيث تجسِّد المبدأ القائل إنَّ جميع البشر، بغضّ النظر عن عرقهم أو جنسيَّتهم أو وضعهم الاقتصادي، يستحقّون العيش في بيئة صحيَّة وآمنة، والمشاركة المتساوية في صنع القرارات التي تؤثِّر على صحَّتهم وبيئتهم. لكنَّ الواقع العالمي يكشف عن فجوات صارخة في تحقيق هذا المبدأ، ما يحوِّل القضيَّة البيئيَّة من مجرَّد مفهوم نظري إلى حركة عالميَّة، تطالب بالتغيير والإصلاح.

٣- جوهر المفهوم: أكثر من مجرَّد تلوّث

لا تقتصر القضيَّة البيئيَّة فقط على مشكلة توزيع المخاطر البيئيَّة (مثل التلوّث ومكبّات النفايات)، بل تشمل أيضًا الوصول العادل إلى الموارد البيئيَّة الإيجابيَّة (كالماء النظيف، والطاقة، والمساحات الخضراء). تتعامل القضيَّة البيئيَّة في صميمها، مع كيفيَّة تراكم العبء البيئي على الفئات الأكثر هشاشة - الفقراء، والأقلِّيات العرقيَّة، والمجتمعات المهمَّشة - بينما تتركز الفوائد غالبًا في يد فئة قليلة.

ثانيًا: المظاهر العالميَّة للظلم البيئي

على المستوى العالمي، تتجلَّى أوجه الأزمة البيئيَّة في مشاهد عدَّة:

١- الفجوة الشمال-الجنوب:

ربما يكون هذا هو أبرز تجلِّيات الظلم البيئي عالميًّا. فالدول الصناعيَّة الكبرى (الشمال) التي

استفادت تاريخيًّا من الثورة الصناعيَّة، وتسبَّبت في الجزء الأكبر من انبعاثات غازات الدفيئة، هي الأقلّ معانـاة من آثار تغيّر المناخ المباشرة. في المقابل، تتحمَّل الدول النامية (الجنوب) - التي سـاهمت بأقلّ قدر في الأزمة - العبء الأكبر من تداعياتهـا، مثل الجفاف والفيضانات وارتفاع منسوب البحر، دون أنْ تملك الموارد الكافية للتكيّف.

٢- استخراج الموارد والاستعمار الجديد:

تسـتمرّ الشركات متعدِّدة الجنسـيَّات في اسـتنزاف الموارد الطبيعيَّة (مثـل النفط والمعادن والأخشاب) من دول الجنوب، تاركة وراءها تلوّثًا وتدهورًا بيئيًّا تطال آثاره المجتمعات المحليَّة، التي نادرًا ما تسـتمتع بالثروة من مواردها. تُوصف هذه الديناميكيَّة غالبًا بأنَّها اسـتمرار لأشكال الاستعمار الاقتصادي والبيئي.

٣- النفايات السامَّة والعولمة:

أصبحت دول العالم النامي وجهة للنفايات الإلكترونيَّة والخطرة من الدول المتقدِّمة، في ممارسة يطلق عليها «الإرهاب البيئي». يجري التخلُّص من هذه النفايات في أفقر المجتمعات؛ حيث تكون القوانين البيئيَّة أضعف، وتفتقر آليَّات الرقابة الفعَّالة، ما يؤدِّي إلى تسـميم البشر والأراضي.

٤- اللاجئون البيئيون:

يهـدِّد تغـيُّر المناخ، والتدهور البيئي سـبل عيش الملايين، لا سـيِّما في المناطق السـاحليَّة والزراعيَّـة الهشَّـة. يخلق هذا موجات نزوح جديـدة لـ «اللاجئين البيئيِّـين» الذين لا يتمتَّعون بالحماية القانونيَّة الكافية بموجب القانون الدولي، وتتردَّد الدول الغنيَّة في استقبالهم، ما يخلق أزمة إنسانيَّة وخُلُقيَّة.

٥- التحدِّيات الهيكليَّة: جذور الأزمة

هذه المظاهر من الظلم ليسـت حوادث معزولة، بل هي نتاج أنظمة هيكليَّة أعمق، توضِّحها

العناصر الآتية:

أ-عدم التماثل في القوَّة:

تفاوض غير متكافئ بين دول قويَّة وشركات عملاقة من جهة، ودول ومجتمعات محليَّة فقيرة من جهة أخرى.

ب- العولمة الاقتصاديَّة:

نماذج التجارة والاستثمار التي تفضِّل تدفُّق رأس المال والأرباح إلى الشمال، بينما تدفع بالتكاليف البيئيَّة والاجتماعيَّة إلى الجنوب.

ج-الفجوة التكنولوجيَّة:

صعوبة حصول الدول النامية على التكنولوجيَّات النظيفة بأسعار معقولة، ما يبقيها حبيسة نماذج تنمويَّة ملوِّثة.

ثالثًا: المشروع المَهدَوي وتجديد العهد الكوني:

نحو علاقة تكامليَّة بين الإنسان والطبيعة

ليست القضيَّة البيئيَّة قضيَّة هامشيَّة، بل هي البُعد الاجتماعي والخُلُقي للأزمة البيئيَّة العالميَّة. إنَّها تُسائِلُنا: من يدفع الثمن؟ ومن يجني الثمار؟ وفي واقع يتَّجه نحو مزيد من الترابط، لا يمكن أنْ يكون هناك أمن بيئي حقيقي دون تحقيق عدالة بيئيَّة. لن يُبنى المستقبل المستدام الذي نطمح إليه على أسس من الظلم والتهميش، بل على مبادئ الإنصاف والتضامن العالمي؛ حيث نعترف بأنَّ مصيرنا جميعًا - في الشمال والجنوب - مرتبط بمصير كوكب واحد.

وفي خضم هذا الواقع البيئي العالمي الذي يهدِّد استقرار الكوكب، وفي ظلِّ الغياب الواضح للعدالة البيئيَّة؛ حيث يبدو الإنسان قوَّة مدمِّرة، تستنزف موارد الأرض وتخلّ بتوازناتها، تبرز الحاجة إلى نموذج روحي وجوهري، لإعادة تعريف العلاقة بين الإنسان والطبيعة.

وهنا يبرز المشروع المَهدَوي الذي يقدِّم رؤية عميقة ومثاليَّة لهذه العلاقة، لا باعتبارها مسألة ثانويَّة، بل جزءًا جوهريًّا من تحقيق العدالة الشاملة على الأرض.

١- الأسس العقديَّة لهذا المشروع: الإنسان خليفة الله في أرضه

تنبع الرؤية المَهدَوية من مفهوم أساس في الإسلام، وهو «الخلافة»؛ حيث جعل الله الإنسان خليفة في الأرض ليعمرها، لا ليفسدها. لكنَّ هذه الخلافة شُوِّهت عبر التاريخ بفعل الظلم والجهل.

يقول ربُّنا سبحانه: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون**﴾ [البقرة: ٣٠].

وتقريب الاستدلال بهذه الآية، هو أنَّ الخلافة عن الله - تعالى - في أرضه تستلزم بإطلاقها جواز تصرُّف الإنسان فيها تكوينًا بالإحياء والإنماء، وتشريعًا بالحكومة عليها. وقد فرَّع الله - تعالى - جواز الحكم لداود عليه السلام في أرضه أنْ جعله خليفة، فقال: ﴿**يا داود إنَّا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ**﴾ [ص: ٢٦]، فيظهر من الآية الشريفة أنَّه لولا خلافته عن الله - تعالى – لما استحقَّ أنْ يحكم في الأرض.

وقال - تعالى -: ﴿**...هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها...**﴾ [هود: ٦١]، وعمران الأرض إنمَّا يكون بإحيائها وعمرانها تكوينًا، وبإجراء العدل فيها تشريعًا. فتشمل الآية للحكومة العادلة أيضًا. ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ساعة إمام عدل أفضل من عبادة سبعين سنة، وحَدٌّ يقام لله في الأرض أفضل من مطر أربعين صباحا»[1].

هذا مضافا إلى أنَّ العمران التكويني لا يحصل عادة إلا في ظلّ نظام العدل والحكومة الصالحة، الحافظة للحقوق، والمانعة عن الإفساد.

قال تعالى: ﴿**ولو أنَّ أهل القرى آمنوا واتَّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض...**﴾ [الأعراف: ٩٦]. ومعناه لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، من غير كدٍّ، ولا تعب، ولا شقاء، ولا عناء، أو لكانوا في الخير، كما يقول القائل: هو في الخير من فرقه إلى قدمه.

---

١ - محمد بن الحسن الحر العاملي: تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج ١٨، ص٣٠٨، ح٥.

إذًا، في عصر الظهور، يعيد الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف تأسيس هذه الخلافة وفقًا للأصل الإلهي، ما يعني إعادة بناء العلاقة بين الإنسان والطبيعة على أساس من المسؤوليَّة والرعاية (الأمانة)، وليس الهيمنة والاستغلال. ولذا، فإنَّ مظاهر تحقيق التوازن البيئي في الحكومة المَهدَوية تنعكس على الشكل الآتي:

أ- إحياء الأرض وإصلاحها:

تذكر الروايات أنَّ الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف «يُظهر من الأرض بركاتها»، فلا تبقى أرض إلا وأخرجت نباتها. وهذا لا يعني معجزة خارقة فحسب، بل هو نتاج حتمي لانتظام العلاقة بين الإنسان والطبيعة. عندما يزول الظلم والجشع، وتُوزَّع الثروات بعدل، ويُوجَّه العمل العلمي والعملي لخدمة الحياة لا لتدميرها، تبدأ الأرض باستعادة عافيتها، وتظهر خيراتها الكامنة.

فقد روى (أبو سعيد الخدري) عن النبي صلى الله عليه وآله، أنَّه قال: "تنعم أُمَّتي في زمن المهدي نعمة لم ينعموا مثلها قط، ترسل السماء عليهم مدرارًا، ولا تدع الأرض شيئًا من النبات إلا أخرجته، والمال كدوس، يقوم الرجل يقول: يا مهدي أعطني، فيقول: خذ".[1]

ب- العدالة ضابط للاستهلاك:

يركِّز المشروع المَهدَوي على تحقيق العدالة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، والتي تنعكس مباشرة على البيئة. فقد روى (ابن طاووس) في الملاحم والفتن، فقال: «يبلغ من ردِّ المهدي المظالم حتى لو كان تحت ضرس إنسان شيء، انتزعه حتى يردّه»[2].

فالثقافة الاستهلاكيَّة المسرفة والجشع الذي يميّز النظام الاقتصادي الحالي، والاستغلال الاستعماري، وشريعة الغاب التي تسود في النظام العالمي، والتي تعدّ المحرّك الرئيس للتدهور البيئي، ستُستبدل باقتصاد قائم على العدل، والكفاية، والاكتفاء، والقناعة.

---

١ - علي بن طاووس: التشريف بالمنن في التعريف بالفتن المعروف بالملاحم والفتن، ص١٤٩، باب١٥٣، ح١٨٢.

٢ - علي بن طاووس: التشريف بالمنن في التعريف بالفتن المعروف بالملاحم والفتن، ص١٤٣، باب١٤١، ح١٦٩.

ج- العلم في خدمة النظام الطبيعي:

سيكون عصر الظهور عصر ازدهار العلم الحقيقي، ولكن علمٍ منضبط بالحكمة والقِيَم الخُلُقيَّة. لن يكون العلم أداة لاستغلال الطبيعة وتسخيرها لمصالح فئة قليلة، بل سيكون وسيلة لفهم أسرار الكون وقوانينه، والتعاون معها. سيتحوَّل الإنسان من «مستغِلّ» للنظام البيئي إلى «منظِّم» له؛ حيث يستخدم المعرفة لتعزيز التنوّع البيولوجي، وضمان استدامة الموارد.

يقول الإمام الباقر عليه السلام: "إذا قام قائمنا عليه السلام وضع يده على رؤوس العباد، فجمع بها عقولهم، وكملت بها أحلامهم".[1] أي زاد الله في دماغهم، فأكمل شعورهم وفكرهم بقدرته الكاملة.

هذا الجمع للعقول يعني إعادة توجيه الفطرة الإنسانيَّة والذكاء البشري من المنافسة المدمِّرة إلى الحكمة العمليَّة، والتعاون المبدع.

د- الطبيعة شاهدة على الخالق:

في الرؤية الإسلاميَّة، الطبيعة ليست مادَّة صمَّاء، بل هي «آية» من آيات الله، تنطق بعظمته. وفي العصر المَهدَوي، يعم هذا الوعي بين الناس، فيتعاملون مع الطبيعة بقدسيَّة وإجلال، لا بوصفها سلعة استهلاكيَّة، بل تصبح حمايَة البيئة تعبيراً عن العبادة والشكر للخالق، وتدميرها يشكِّل انتهاكًا لأمانة الاستخلاف. وسوف يتَّسع هذا الوعي ليشمل الحيوان. فقد روى (ابن طاووس) في الملاحم والفتن عن النبي صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «إذا نزل عيسى بن مريم وقتل الدجَّال تمتَّعوا حتى تحيوا ليلة طلوع الشمس من مغربها، وحتى تمتعوا بعد خروج الدجَّال أربعين سنة، لا يموت أحد ولا يمرض، ويقول الرجل لغنمه ولدوابِّه: اذهبوا فارعوا في مكان كذا وكذا، وتعالوا ساعة كذا وكذا، وتمرّ الماشية بين الزرعين؛ لا تأكل منه سنبلة، ولا تكسر بظلفها عودًا، والحيَّات والعقارب ظاهرة لا تؤذي أحدًا ولا يؤذيها أحد، والسبع على أبواب الدور تستطعم لا تؤذي أحدًا، ويأخذ الرجل الصاع أو المدّ من القمح أو الشعير، فيبذره على وجه الأرض بلا حراث ولا كراب، فيدخل المدّ الواحد سبعمئة مدّ».[2]

---

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ١، ص ٢٥، ح٢١.

٢ - علي بن طاووس: التشريف بالمنن في التعريف بالفتن المعروف بالملاحم والفتن، ص٢٠٣، باب ٢٠٥، ح٢٩١.

٢-الانتقال من الرؤية إلى الممارسة: دروس للحاضر

والسؤال الآن: كيف يمكن لهذه الرؤية المستقبليّة أنْ تؤثِّر على سلوكنا اليوم؟

أ- الضمير البيئي

■ **تربية الضمير البيئي:**

إنَّ الضمير البيئي في الإسلام ليس وعيا خُلُقيًّا مجرَّدًا، بل هو جزء من الوعي التوحيدي الذي يرى في كلّ كائن أثرًا لله سبحانه، وفي كلِّ مخلوق حقًّا له على الإنسان.

والإنسان المَهدَوي يؤمن بأنَّ ظهور المهدي عجل الله فرجه الشريف ليس فقط حدثًا روحيًّا أو سياسيًّا، بل هو تحوُّل كوني شامل يعيد الانسجام إلى العلاقة بين الإنسان والطبيعة. وهذه الصورة لا تعبرِّ عن معجزة خارقة فحسب، بل عن نموذج تربوي للضمير البيئي؛ فالإنسان حين يزول عنه الجور الداخلي، تزول آثار الجور الخارجي، وتعود الطبيعة إلى صفائها، كأنَّ الإصلاح الاجتماعي والبيئي وجهان لعملة واحدة.

■ **الضمير البيئي مسار تمهيدي للظهور:**

في الثقافة المَهدَويَّة، ينظر إلى الإعداد للظهور بوصفه مشروعًا لإصلاح الذات والعالم.

ومن ثَمَّ، فإنَّ تربية الضمير البيئي تعدَ جزءًا من عمليَّة التمهيد؛ لأنَّها تعيد الإنسان إلى موقع (الخليفة الأمين)، الذي يحفظ الأرض، ويصون مواردها، ويعامل المخلوقات برحمة.

ليس الوعي البيئي هنا مجرَّد سلوك حضاري معاصر، بل تعبير عن انتظار مسؤول؛ إذ إنَّ من ينتظر حكومة العدل الإلهي، لا يمكن أنْ يعيش في فوضى بيئيَّة، أو يسهم في تلويث الأرض التي ستطهَّر بعد الظهور.

فقد روى (الكليني) عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: "عليك بتقوى الله، والورع، والاجتهاد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الخُلق، وحسن الجوار، وكونوا دعاة إلى أنفسكم بغير ألسنتكم، وكونوا زينًا، ولا تكونوا شينًا..."[1]

---

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج٢، ص٧٧، باب الورع، ح٩.

وتربية الضمير البيئي هي من أوضح مصاديق الدعوة الصامتة؛ لأنَّ حفظ البيئة ترجمة عمليَّة لقِيَم العدالة، وحسن الخُلق، والرحمة التي يدعو إليها الإسلام.

■ **من الوعي الفردي إلى الوعي الكوني**

لا يتوقَّف الضمير البيئي المَهدَوي عند حدود الفرد، بل يوسِّع مداركه حتى يحتضن الكون كلِّه. فكلّ ذرَّة في الوجود تشارك في التسبيح الإلهي: ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومن يدرك هذه الحقيقة لا يستطيع أنْ يلوِّث بحرًا، أو يقطع شجرة، أو يسيء إلى كائن حيّ؛ لأنَّ كلَّ شيء حيّ يذكر الله تعالى.

وعندئذ يصبح احترام البيئة جزءًا من الولاء الإيماني، الذي يمهِّد لعصر السلام الكوني المَهدَوي.

■ **التربيَّة العمليَّة للضمير البيئي:**

تتطلَّب تربية الضمير البيئي منهجًا متكاملاً يشمل:

- **التنشئة الروحيَّة:** عبر ترسيخ فكرة أنَّ الأرض أمانة، وأنَّ تلويثها معصية.
- **القدوة العمليَّة:** عبر سلوك إسلامي مسؤول في الاستهلاك، والنظافة، والزراعة، والطاقة.
- **المناهج التعليميَّة:** دمج المفاهيم البيئيَّة في المناهج الدينيَّة، وربطها بمبدأ الخلافة الإلهيَّة.
- **العمل الجماعي:** إنشاء مبادرات مجتمعيَّة بيئيَّة تحمل روح الانتظار المَهدَوي، كحملات التشجير، أو تنظيف الأحياء باسم «العدل البيئي».

ومن هنا، فإنَّ تربية الضمير البيئي ليس مشروعًا ثانويًّا، بل هي خطوة جوهريَّة في طريق بناء المشروع المَهدَوي القادم. إنَّها تربية تنطلق من الإيمان بأنَّ الأرض ستُعاد إلى طهارتها الأولى، وأنَّ الإنسان مدعو لأنْ يكون شريكًا في هذا التطهير لا عائقًا أمامه؛ فالإصلاح الذي يبدأ من

الداخل – من ضمير الإنسان – هو القادر على إنقاذ الخارج - البيئة والطبيعة- ليصدق فينا قول الله تعالى: ﴿**إنَّ الله لا يغيّر ما بقوم حتَّى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾ [الرعد: ١١].

وحين يتكامل الضمير البيئي مع الوعي المَهدَوي، يصبح انتظار المُخلِّص فعلاً يوميًّا؛ نزرع شجرة فننتظر، ونحافظ على نهر فننتظر، ونصلح الأرض فنمهِّد لعصر العدل والسلام.

ب- النضال البيئي

■ **النضال من أجل الإصلاح البيئي:**

إنَّ النضال من أجل الإصلاح البيئي لا يقلّ أهميَّة عن أيّ شكل من أشكال الجهاد؛ لأنَّه يسعى الى استعادة التوازن بين الإنسان والأرض، وبين القوَّة والرحمة، وبين الحقّ والمصلحة.

في الرؤية الإسلاميَّة المَهدَوية، لا ينفصل هذا النضال عن حركة التاريخ الكبرى نحو العدل الإلهي الشامل، الذي يتحقَّق بظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف. فكلّ مقاومة للظلم، سواء على الإنسان أم على الطبيعة، هي خطوة في طريق التمهيد لذلك العصر الموعود، الذي تتصالح فيه الأرض مع ساكنيها.

ليست البيئة إطارًا خارجيًّا لحياة الإنسان، بل هي جزء من نسيجه الوجودي. وعندما تنتهك حقوق الطبيعة، تنتهك ضمنيًّا حقوق الإنسان نفسه؛ لأنَّ كليهما خُلقا من أصل واحد.

﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾ [هود: ٦١].

الإصلاح البيئي هو صورة من صور العدالة، والعمل على كشف الممارسات الظالمة التي تستغلّ الطبيعة وتُهمِّش المجتمعات الفقيرة، هو جزء من تهيئة الأرضيَّة للإصلاح الشامل الذي يحقِّقه الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

■ **إعادة تعريف التقدُّم:**

تشكِّك الرؤية المَهدَوية في النموذج السائد للتقدُّم القائم على النمو المادي غير النهائي، وتقترح بديلاً قائمًا على التنمية الروحيَّة والخُلُقيَّة والبيئيَّة المتوازنة.

لا يقدِّم المشروع المَهدَوي حلولاً تقنيَّة للأزمة البيئيَّة فحسب، بل يقدِّم مقوِّمًا أعمق؛ علاجًا

للـروح البشريَّـة. فهو يرى أنَّ الخلـل في العلاقة مع الطبيعة هو انعـكاس لخلل في العلاقة مع الخالق ومع الذات. عندما يصلح الإنسـان نفسـه، ويحكم بالعدل، ويعيد اكتشاف دوره بصفته خليفة الله في أرضه، فإنَّ النظام الطبيعي من حوله يسـتجيب حتـمًا، وتعود العلاقة إلى حالتها الأصليَّة من التناغم والتكامل.

في ذلك اليوم، لن يكون الإنسـان حارسًـا للطبيعة فحسـب، بل شريكًا لهـا في تحقيق غاية الوجود؛ عبادة الله وعمار الكون.

رابعًا: من الرؤية إلى الواقع: ترجمة القِيَم المَهدَوية إلى ممارسـات بيئيَّة مستدامة

الرؤيـة المَهدَويـة تقدم ما يمكن تسـميته «إيكولوجيا مقدَّسـة»؛ حيث تصبـح حماية البيئة شكلاً من أشكال العبادة، والعناية بالطبيعة تعبيراً عن الشكر للخالق. ليست المسألة مجرَّد إنقاذ للكوكب من أزمة ماديَّة، بل هي اسـتعادة لنسق وجودي سـليم؛ حيث يعود الإنسان إلى فطرته بوصفه مستخلَفًا في الأرض، وراعيًا لها، وشاكرًا لنِعَمِها، ومتعاونًا معها في تحقيق غاية الوجود.

في هذه الرؤية، تصير البيئة ليسـت مجرَّد مورد نستهلكه، بل هي مَدرسة نتعلَّم منها، ومسجد نعبد فيه، وشريك نتعاون معه. وهذه هي أعلى درجات العلاقة بين الإنسان والطبيعة، حين تصير الأخلاق والروحانيَّة أساسًا للعمران.

لكن كيف يمكن ترجمة هذه الرؤية الفلسـفيَّة والدينيَّة إلى ممارسات عمليَّة قابلة للتطبيق في عالمنا المعاصر؟

١- الأساس الروحاني: استعادة البُعد الغَيبي في العلاقة مع الطبيعة

منذ أنْ انقطع الإنسان عن السماء، فَقَدَتْ الطبيعة صوتها. وصارت الأرض عنده مادَّةً صمّاء، والغابة مجرَّد أخشاب، والبحر مساحة للاستثمار، والهواء رقمًا في تقارير التلوّث. تراجع الحسّ الغَيبـي الذي كان يمـلأ الوجود، وغابت النظرة التي تـرى في كلّ شيء إشراقًا إلهيًّا. لقد تحوَّل الكون من «آية» إلى «مورد»، ومن مظهرٍ للغيب إلى أداةٍ للمنفعة. ومع هذا التحوُّل، بدأ الإنسان

يخسر نفسه بقدر ما أخضع الطبيعة.

لكنّ في أعماق الوعي الديني — وخصوصًا في التصوّر الإسلامي المَهدَوي — ما يزال هناك خيـط نور يذكّرنا بأنَّ العالم ليس مجرَّد كتلة ماديَّة، بل هو نَفَسٌ من أنفاس الخلق، يتردّد فيه ذكر الله في كل ذرةٍ منه. فالقرآن لا يكتفي بوصف الطبيعة من حيث كونها مشهدًا خارجيًّا، بل يدعونا إلى قراءتها بوصفها «كتابًا ثانيًا» يُتلى بغير لسان:

﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾ [الإسراء: ٤٤].

في هذا التسبيح الصامت تكمن الحقيقة الكبرى: ليست الطبيعة مخلوقة فحسب، بل هي ذاكرة الغَيب، كلّ ورقة فيها تذكّر بالخالق، وكلّ نجم فيها يسـبّح باسـمٍ من أسمائه. وعندما يغيب هذا الإدراك من قلب الإنسان، تصبح علاقته بالعالم علاقة استهلاكٍ واستغلال، لا علاقة محبةٍ ومعرفة.

اسـتعادة البُعد الروحي الغَيبي في علاقتنا مع الطبيعة، لا تعني الانفصال عن العلم أو رفض التقنيَّـة، بل تعني إعادة ترتيب المنظور؛ أنْ نرى في العلـم طريقًا إلى فهم جمال الخلق، لا إلى الهيمنة عليه، وأنْ نحيا في الأرض كما يحيا الزاهد في محرابه؛ يأخذ منها بقدر حاجته، ويشكرها كما يشـكر الله الذي أودع فيها الحياة. فالإيمان الحقّ لا يُقصي المادَّة، بل يكشـف عمقها؛ إذ يرى فيها تجلّيًا للغيب، لا حجابًا عنه.

حين كان الأنبياء والأولياء يسـيرون في الأرض، لم يكونـوا يرونها مجرَّد مسرحٍ للابتلاء، بل حضرةً للقاء. كانوا يعيشون في تناغمٍ بين الحضور الطبيعي والحضور الإلهي، حتى يصبح النظر في الشـجرة تأمُّلًا في الحكمة، والتأمُّل في النهر اسـتماعًا للذكر، والنظر إلى السـماء نوعًا من الصلاة. من هنا، قال الأولياء «ما رأيت شـيئًا إلا ورأيت الله فيه»، لا بمعنى الحلول أو الاتحاد، بل بمعنى أنَّ الوجود كلّه مرآة تنعكس فيها أنوار الخالق على مقادير قابلياتها.

إنّ هذا النمط من الرؤية يعيد إلى الطبيعة قدسـيتها، لا بالأسـطورة، بل بالحقيقة؛ لأنَّها عودة إلى الوعي الأوَّل الذي فُطر عليه الإنسـان قبل أن يُعكر صفوه التشييءُ المادِّي. ومن ثَمَّ فإنَّ كلَّ مشروعٍ إنساني يهدف إلى استعادة التوازن البيئي لن ينجح إلا إذا استعاد الإنسان أوَّلًا هذا الشعور القدسي؛ لأنَّ اليد التي تلوِّث الأرض هي ذاتها اليد التي نسيت الله في خلقه.

لقد كانت الأرض، في وجدان المؤمن، بيتًا لله قبل أنْ تكون موطنًا للبشر. وحين يفقد الإنسان

هذا الإحســاس، يصبح كلّ ما يفعله ضدّ الطبيعة فعــلاً ضدّ ذاته. لذلك، فإنّ الإصلاح البيئي لا يبدأ من سنّ القوانين، ولا من تطوير التقنيَّة فحسب، بل من بعث الروح في علاقتنا بالعالم، ومن إعادة المعنى إلى الأشياء، ومن الإصغاء إلى ذلك التسبيح الخفي الذي يملأ الوجود.

وحين يستعيد الإنســان هذه الرؤية، تنفتح أمامه أبواب السلام الداخلي؛ لأنَّ من يرى الله في الأشياء لا يستطيع أنْ يفســد فيها. بل يصبح حارسًا للخلق، ومؤتمنًا على الجمال، ومشاركًا في حفظ التوازن الذي أراده الله للكون. عندئذٍ يعود الوجود كلّه إلى مقامه الأول: محرابًا كبيراً تُقام فيــه الصلاة بغير كلمات، ويغدو النظر إلى الشــجرة، أو إلى الغيمــة، أو إلى وجه طفل، لونًا من العبادة الخاشعة. عندها يمكن للإنسان أنْ يقول بطمأنينةٍ عارفة:

ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله فيه.

٢- المبادئ الخُلقيَّة: من الفرد إلى النظام الشامل

تقوم الرؤية المَهدَوية على جملة من المبادئ الخُلُقيَّة التي تنعكس مباشرة على العلاقة مع البيئة:

أ- مبدأ العدالة الشاملة:

لا تقتصر العدالة في المنظور المَهدَوي على العلاقات البشريَّة، بل تمتدُّ لتشــمل العلاقة مع الكائنات الأخرى والأجيال القادمة. فالظلم البيئي هو شكل من أشكال الظلم المرفوض. وهذا يعني توزيعًا عادلاً للموارد الطبيعيَّة، وعدم تحميل الأجيال القادمة تبعات استهلاكنا الجائر.

ب- مبدأ القصد والاعتدال:

في واقع يقوده منطق الاســتهلاك المسرف، تقدِّم الرؤية المَهدَوية قيمة «الكفاية» و«القناعة». يقول الإمام علي عليه السلام: «القناعة مال لا ينفد».[1] هذا المبدأ الخُلُقي هو أعظم ضابط للاستهلاك البشري، وأقوى علاج للجشع الذي يقف وراء الاستنزاف البيئي.

١ - محمد بن الحسين (الشريف الرضي): نهج البلاغة، ج٤، ص١٤، باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام.

ج- مبدأ المسؤوليَّة المتّسعة:

لا تقف المسـؤوليَّة في الرؤيـة المَهدَوية عند حدود الـذات أو المجتمع المحدود، بل تمتدّ لتصبح مسؤوليَّة كونيَّة. فالإنسان مسؤول عن «إصلاح الأرض»، وعن «الرعاية» الصحيحة لها. هذه المسؤوليَّة تجعل من حماية البيئة واجبًا دينيًّا وخُلُقيًّا قبل أنْ يكون خيارًا سياسيًّا.

د- مبدأ التعاون بدلًا من التنافس:

تحـوِّل الرؤية الماديَّة الحديثة العلاقة مع الطبيعة إلى صراع من أجل البقاء والاسـتغلال. أمَّا الرؤية المَهدَوية فتقوم على منطق «التعاون» مع قوانين الطبيعة، و«التكامل» مع أنظمتها. فالإنسان ليس سيِّدًا على الطبيعة، بل شريكًا حكيمًا فيها.

٣- انعكاسات هذه الرؤية على الواقع البيئي

عندما تتحوَّل هذه المبادئ إلى واقع عملي في عصر الظهور، فإنَّها تنتج:

أ- اقتصاد الرحمة:

يسـتبدل الاقتصاد الجشع باقتصاد يراعي حقوق الأجيال القادمة والكائنات الأخرى. تصبح التنمية «مستدامة»، تخدم الإنسان والطبيعة معًا.

ب- تكنولوجيا متواضعة:

لا تتحوَّل التكنولوجيا إلى أداة هيمنة على الطبيعة، بل إلى وسيلة لفهم أسرارها والتعاون معها. تكنولوجيا تخدم الحياة بدلًا أنْ تهددها.

ج. مجتمع الامتنان:

مجتمع يعيش ثقافة «الشـكر» للنِّعَم الطبيعيَّة، بدلًا من ثقافة «الاستهلاك» المسعور. فيصبح الامتنان دافعًا للحفاظ على النِّعَم لا لإهدارها.

د- حضارة الجمال:

لا تقتصر حضارة على الكفاءة الماديَّة، بــل ترعى «الجمال» في العلاقة مع الطبيعة. ويصبح العمران فنًّا ينسجم مع المشهد الطبيعي، ولا يصادمه.

خاتمة

في نهايــة هذه الرحلة، يتَّضح أنَّ النظر إلى الطبيعة بما هي أمانة إلهيَّة في أعناقنا، يفرض على الإنســان سلوكًا وجوديًّا مختلفًا جذريًّا عمَّا هو سائد اليوم. فليست حماية البيئة خيارًا ثانويًّا بين خيارات الحياة، بل هي التزام خُلُقي وجداني قبل أنْ يكون قانونًا أو نظامًا. إنَّها مســؤوليَّة العبد تجاه آثار ربِّه، وتجسيد عملي لمعنى الخلافة في الأرض.

إنَّ السلوك الإنساني الذي ننشده، ينبغي أنْ ينبع من يقين داخلي بأنَّ إصلاح الأرض جزء من إصلاح النفس. فكما نحرص على طهارة قلوبنا، يجب أنْ نحرص على طهارة أنهارنا. وكما ننقِّي أرواحنا من الأدران، يجب أنْ ننقِّي هواءنا من الأوثان. إنَّها معركة واحدة على جبهتين متلاقيتين: جبهة القلب وجبهة الأرض.

لقــد آن الأوان لنتعلَّــم لغــة جديــدة في حوارنا مع الكون، لغــة لا تقوم على منطق الســيطرة والاستغلال، بل على منطق الحوار والتكامل. وأنْ نستمع لصوت البحر قبل أن نعبث بشواطئه، وأنْ ننصت لحكمة الجبل قبل أنْ نشــقّ جنباته. فالطبيعة ليست عدمًا صامتًا، بل هي كائن ناطق بآيات البقاء والوجود.

إنَّ المسؤوليَّة التي نحملها لا تقتصر على جيلنا الحاضر، بل تمتدّ إلى الأجيال القادمة التي لها علينا حقوق مثلما لنا حقوق. إنَّ التراث الطبيعي الذي ورثناه عن أســلافنا ليس ملكًا لنا وحدنا، بــل هو ودعة في أيدينا لأبنائنا وأحفادنا. فمن الظلم البيّن أنْ نســتهلك كلَّ شيء اليوم، ولا نترك لهم شيئًا لغد.

إنَّ طريق التغيير يبدأ من الخطوات الصغيرة التي لا نســتهين بها. فكلّ نقلة روحيَّة، وكل قرار يومي، وكل كلمة توعويَّة، هي لبنة في صرح العلاقة الجديدة بين الإنسان والطبيعة. عندما نختار

سلعة أقل تلويثًا، أو نقتصد في استهلاك الماء، أو نحافظ على شجرة، فإنَّنا نكتب بكلمات أفعالنا فصلاً جديدًا من فصول الرحمة بالكون، ونخطو خطوة في طريق التمهيد للدولة المَهدَوية العادلة.

إنَّ الحلول التقنيَّة وحدها عاجزة عن إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ما لم ترافقها تربية روحيَّة تعيد للإنسان توازنه المفقود. فكما أنَّ الجسد المريض يحتاج إلى علاج، فإنَّ الروح الغافلة تحتاج إلى تذكير. تذكير بأنَّنا جزء من كلٍّ كبير، وأنَّ سعادتنا الحقيقيَّة ليست في امتلاك الأشياء، بل في فهم أسرار الوجود.

وأخيرا، إنَّ حماية البيئة ليست شعارًا نرفعه، بل هي منهج حياة نعيشه. هي التزام ديني وواجب إنساني وضرورة وجوديَّة. فلنعمل معًا على أنْ نكون جيلاً ممهِّدًا يُذكَر بالخير، لا لأنَّه كان الأكثر غنى أو تطوّرًا، بل لأنَّه كان الأكثر حكمة ورحمة بهذا الكوكب الذي استودعنا الله إياه.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي: الاحتجاج، السيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف، لا ط، ١٩٦٦م.
- علي بن موسى بن جعفر بن طاووس: التشريف بالمنن في التعريف بالفتن المعروف بالملاحم والفتن، مؤسسة صاحب الامر عجل الله فرجه الشريف، قم، ط١، ١٤١٦هـ.
- محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٣م.
- محمد بن الحسين بن موسى الموسوي الهاشمي القرشي: نهج البلاغة، الشيخ محمد عبده، دار الذخائر، قم، ط١، ١٤١٢ه.
- محمد بن جرير بن رستم الطبري الصغير: دلائل الإمامة، قسم الدراسات الإسلاميَّة في مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، مؤسسة البعثة، قم، ط١، ١٤١٣هـ.ق.
- محمد بن الحسن الحر العاملي: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ط٢، ١٤١٤هـ.ق.
- محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي: الكافي، علي أكبر الغفاري، دار الكتب الاسلاميَّة، طهران، ط٥، ١٣٦٣ ش.